نهاية حب

للأستاذ زهدى الشواف

لو قدر لكل إنسان أن يحب كما أحببت ، وأن يعنى بالحبيبة كما عنيت ؛ لفاض ينبوع العواطف فى هذه الدنيا .

لقد قضيت ريق شبابى على مقعد الدرس ، وصرفت زهرة أيامى وأنا أقلب صفحات الكتب . ولقد كنت أحسب أن هذه الأوراق الجامدة ستنال منى ؛ فتخمد نشاط عاطفتى . ولكنى كنت مخطئاً فى ظنى ؛ إذ كنت كلما انصرفت لحظة عن الدرس طالعتنى العيون الناعسة فعدت وكأنى لم أغض لحظة إلى جانب كتاب ، ولم أمض ثانية بعيداً عن تيار العاطفة الجارفة .

وظللت تبيسم العاطفة ؛ فأمضيت حقبة من الزمن سادراً لا أرعوى ، حتى قيض الله لى الصدمة التى أبرأتنى من الداء .

كان ذلك فى صبيحة يوم من أيام الربيع فى حماة ؛ فقد استيقظت باكراً ومضيت للحقول أمتع العين بمفاتن الطبيعة ، ولم يطل بى الطواف كثيراً ؛ فقد كان عقرب الساعة يسرع فى جريه فيدنو من الثامنة . وكانت المدرسة تتمثل لى من ورائه ، وكانت دقات الجرس ترن فى أذنى مؤذنة بحلول الدرس الأول ... يا إلهى كيف أترك هذا الهواء الطلق ، وهذه الجنان الرحبة ... لأنحدر إلى الغرفة الضيقة ... إلى الهواء الحبيس ! . وكيف أضحى بهذه الحرية المطلقة لأستريح إلى نظام أقل ما يقال فيه إنه غول الحرية ! ولم أذهب فى تفكيرى بعيداً فلم يبق للثامنة إلا دقائق عشر لا تكاد تكفى للوصول إلى المدرسة .

وعدت أدراجى آسفاً ، وانحدرت إلى المدينة لا ألوى على شىء . وبينا أنا فى الطريق قرع مسمعى نبرات صوت عذب فرفعت رأسى لأتبين مصدرها ، فإذا أنا أمام جبين وضاح يبهر بنوره شمس تلك الصبيحة الفاتنة .

إنها فتاة فى مقتبل العمر ، وقفت فى نافذة بيتها تتلهى برؤية المارة . لقد انحنت قليلا ممسكة شعرها المتهدل بيمناها وراحت تداعب بيسراها قطتها الجميلة . ولقد لبثت هذه القطة تونو إليها شاخصة ذاهلة ، كأنها قد سحرت بزرقة تلك العيون ، أو أنها فتنت بمنظر ذلك الجبين ... ولم أشعر إلا وقد طرحت كتبى على الأرض ثم جلست فوقها ورحت أرنو إلى النافذة شاخصاً ذاهلا .. لقد أنسانى هذا الجمال كل ما قد شهدت فى الحقول من جمال ، وأبعدت هذه العيون شبح المدرسة عن فكرى . وكأن فعلتى هذه لم ترق للآنسة المحترمة ؛ فإنها لم تكد ترانى أحدق فى وجهها حتى اعتدلت بوقفتها وسوت شعرها بيدها ثم أغلقت النافذة وانصرفت .

أما أنا فقد لبثت فى مكانى أفكر بحظى التاعس ، وأقرن نفسى إلى تلك القطة السعيدة ! إنها أسعد من على الأرض ! ألا يكفيها أنها تستمتع بحريتها وتعيش إلى جانب الآنسة الفاتنة ! .. ألا يكفيها أنها لا تمسك نفسها ساعات طويلة على مقعد الدرس . ألا يكفيها أنها لا تشغل بالها بقوانين الجبر ، ولا ترهق نفسها بحفظ قواعد

وجملة كلها ولم تبيض إلى الآن .

وقال الحافظ ابن حجر فى « الدرر » . إن مصنفاته ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة . وفى « فوات الوفيات » إنها تبلغ ثلاثمائة مجلد .

وقد كثر القول فى هذا الرجل بين نقد وجرح وإطراء ومدح ، وأعدل الأقوال هو ما قاله تلميذه ابن كثير : وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء ، وممن يخطىء ويصيب ... قال مالك بن أنس : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر .

أما « المنتقى » فهو من تأليف جده ، وذلك مشهور .

٢ — إلى الأستاذ محمود شاكر :

فى عدد الرسالة ٧٦١ (وهذه الخمسة أشياء) فهل هذا تطبيع ، والصواب (وهذه الخمسة الأشياء) والأعلى من هذا والأصح (وهذه خمسة الأشياء) أم تذهبون إلى غير هذا ؟

محمد أسامة عليبة

الصرف والنحو ! سعيدة أنت أيتها القطة .

وبينا أنا سابح فى سماء الخيال ؛ وقعت عينى على الساعة فإذا بها تشير إلى الثامنة والربع ... يا للمصيبة ! ... أين المدرسة ؟ . بأى وجه أقابل الناظر ؟ ... ومضيت أجر ساقى جراً ، وكنت كلما سرت خطوتين تلفت لأرى النافذة ومن وراء النافذة . حتى إذا ما خفى المنزل عنى عدوت نحو المدرسة ودخلتها متأخراً ؛ فاستقبلنى الناظر بطلعته الكالحة . وبعد السؤال والجواب سجل لى ما بناسبنى من جزاء ثم سمح لى بالدخول إلى الصف .

ودخلت الصف فألفيت زملائى الطلاب ساكتين كأن على رؤوسهم الطير . لقد كان الوجوم يخيم فى سماء الغرفة ، وكان الصمت يستأثر بالأنواء ... أين هذا الكلوح من تلك البشاشة ! وأين هذا التزمت من ذلك المرح ؟...

وأخذت مقعدى ورحت أفكر . ولقد كان لى فى صمت الطلاب وهدوئهم ما يحملنى على الانطلاق فى سماء الخيال ... لقد فتحت الكتاب لأتابع الأستاذ فى قراءته ، ولكن العيون الزرقاء كانت تطالعنى من بين الأسطر ... لقد كانت كل كلمة عيناً زرقاء ، وكان كل سطر خصلة شقراء . لقد كنت فى واد والطلاب فى واد . وانتهى الدرس الأول ، وتبعه الثانى ، وانصرم النهار وأنا لا أعلم كيف انصرم ؛ ولكن الذى أذكره هو أنه كان طويلا ، وأنى لم أفد به من العلم لا كثيراً ولا قليلا .

ورجعت البيت فى المساء كاسف البال محطم الأعصاب ، ولم أقدر على المطالعة ، فأغلقت الكتاب واضطجعت فى الفراش ... ولكن أنى للنوم أن يزور الأجفان التى تتطلع من وراء الخيال إلى صورة الحبيب المجهول .

وتوالت الأيام وأنا أزداد بالآنسة شغفاً ، وتتابعت الليالى وأنا أطوف حول بيتها لعلى أظفر منها بنظرة . ولكن هيهات ! فقد كانت لا تكترث بوجودى ، ولا تبالى بمرورى وإنما تعتدل فى وقفتها فتغلق النافذة ثم تنادى قطتها وتنصرف . وكنت إذا لحظت منها الصدود غضبت وأقسمت أن لا أمر من أمام بيتها ، ولكنى ما أسرع ما أحنث بهذا القسم فلا أجدنى إلا سائراً فى طريق بيتها . لقد كانت هذه القصة تتمثل كل يوم ، ولكنها تنتهى وكأنى لم ألحظ صدوداً ولم أحلف يميناً .

وأقبل الصيف وأغلقت المدارس أبوابها فوجدت فى العطلة الصيفية عوناً على تحقيق رغباتى . لقد رحت أقضى الأيام الطوال حول منزل آنستى فأستقصى أخبارها وأتنشق عبير رائحتها ... ولقد لحظت ممرفتى بها الحدود التى كان الربيع قد رسمها فلم أعد أقنع برؤيتها فى النافذة ، وإنما أصبحت أراها فى الطريق رائحة غادية برفقة مربيتها العجوز (نانو) .

وإن أنس لا أنس تلك اللحظات التى كنت أقضيها بانتظار خروجها . لقد كانت اللحظة شهراً ، وكانت الساعة دهراً ، ولكنى ما كنت لأشعر بوطأة هذا الطول . فقد كان لى خلفه آمال تعدل كل ما ألقاه من آلام . لقد كنت أنتظر طويلا ثم لا ألبث أن أسمع صوتاً ملائكياً يرن فى أذنى . إنه صوتها وهى تقول : « نانو ... امشى يا نانو » ثم ينفتح الباب وتخرج منه وهى تخطو خطوة وئيدة وإلى جانبها « نانو » فأقف فى الطريق محاولا استدراجها إلى ابتسامة رقيقة . ولكنى كنت أعود كل مرة خائباً . فقد كانت تمر بى دون أن تشعر بوجودى أو تفطن إلى عواطفى . وإنى لا أزال أعجب لتلك العواطف الجامدة كيف لم تعصف بها نظراتى الحادة ، وإنى لا أزال أكبر ذلك القلب الهادئ الذى لم تستطع أن تحركه نبرات قلبى المتأججة ...

وقد أوشك الصيف أن ينقضى قبل أن أنتهى إلى نتيجة مرضية ، فقد ظل قلب الآنسة بعيداً عن قلبى وبقيت آذانها مغلقة عن سماع صوتى ، وقد تراءى لى أنها تكتم عواطفها خوفاً من «نانو» العجوز ، فاعتقدت أن الحب يقضى على أن أستعطف « نانو » وأن أستدر رحمتها .

ولما كان الغد ملت بنظرى نحو « نانو » فابتسمت لى وابتسمت لها وقلت فى نفسى إنها ولا شك قد أدركت معنى ابتسامتى وفهمت مغزى وقوفى ، وتتابعت النظرات والابتسامات ورأيت « نانو » ذات صباح وحدها فدنوت منها وتكلمت من الشجاعة أكثر مما أطيق ، ثم اعترضتها وقلت لها : « الهوى صعب يا نانو » فهزت برأسها هزة العجب والكبرياء ثم أجابتنى « والصبر طيب ... طيب يا حبيبى ! . » ثم مضت لسبيلها وظللت وحدى أفكر فى معنى كلمتها ...

(البقية فى العدد القادم)

زهدى السواف